

ثقافة الطفل وتحديات العولمة

د . عبد الله الخياري

أستاذ باحث في سوسولوجية التربية

مقدمة : الطفل هو ثروة بشرية حقيقة، والطفولة كمرحلة عمرية، قد تبدو عابرة، لكنها ستشكل النواة الأساسية لهوية رجل الغد. إن البذور التي يتم زرعها في هذه المرحلة هي التي سوف تثمر في المستقبل، مكونة النسق القيمي والثقافي للمجتمع برمته. وقد أظهرت خلاصات البحوث التربوية والنفسية أن مرحلة الطفولة، بمختلف فتراتها المبكرة والمتوسطة والمتأخرة، تعتبر بمثابة المرحلة الحاسمة في بناء معالم وسمات شخصية الفرد مستقبلا، في أبعادها الجسمية والعقلية والنفسية والثقافية. ويترتب عن ذلك أن سمات شخصية الأفراد تصبح هي محصلة للتكوين الذي تم ترسيخه خلال الطفولة (الطفل أب الرجل). لذا أصبحت التنشئة الثقافية والتربوية للطفل من الأولويات التي يجب إعطاؤها ما تستحق من العناية، بعد أن كنا إلى حين نغير الاهتمام فقط إلى مسألة تعليمه وفق مناهج ملائمة. إن «الأمن» السيكولوجي والثقافي والاجتماعي للطفل يبدأ بتحصينه ضد كل ما قد يدفع به نحو الاستلاب والتغريب أو الانحراف؛ ويبدأ ذلك منذ الطفولة الأولى، حيث أصبح يتفاعل الطفل، في الوقت الراهن، مع ثقافات جديدة تحملها وسائط الكترونية، تكون لها جاذبية خاصة لديه. وبذلك يصبح الطفل متلقي بامتياز للرسالة الإعلامية والثقافية المباشرة أو غير المباشرة ويتفاعل معها بعفوية تامة؛ وغالبا ما يقع، بسرعة، تحت تأثيرها المباشر مستبظنا بطريقة لاشعورية ما تحمله من اتجاهات وقيم. ويدل ذلك على أن الثقافة الالكترونية أصبحت هي أكبر منافس للوظيفة التربوية والثقافية التي كانت تتولاها تقليديا مؤسستا الأسرة والمدرسة.

فكيف سنضمن، النمو المتوازن لأطفالنا والحفاظ على هويتهم الثقافية والاجتماعية في ظل عولمة جارفة لم تكثف بغزو البلدان، بل غزت حتى عالم الصغار، دون أن تكتثرت لبراءتهم؟ ألا تصبح مسألة تحصيل الطفولة من بعض مزالق الثقافة الالكترونية للعولمة أولوية ضمن الإستراتيجية التربوية الشاملة؟ ذلك ما ستحاول هذه المداخلة الإجابة عنه.

1 - أهمية مرحلة الطفولة :

تمثل الطفولة شريحة مهمة من الناحية الإحصائية¹، وتغطي مرحلة زمنية طويلة نسبياً، لا يمكن للطفل أن يستغني فيها عن رعاية الأبوبين، وذلك بسبب وجوده في حالة تبعية تامة لهما؛ فالطام النفسي مع الأسرة يصعب تحققه دفعة واحدة، وتبقى الحاجة إلى الرعاية الوالدية وروابطها النفسية والمعنوية والمادية قائمة حتى بالنسبة لمرحلتى المراهقة والشباب، خصوصاً مع تنامي ظاهرة بطالة الخريجين وامتداد فترة العزوبة.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن مراحل نمو الطفل والياغ تبقى لها خصائصها ومتطلباتها، لكن المشترك بينها كلها هو أن المحيط الأسري والاجتماعي سيكون من بين العوامل الحاسمة في نمو الطفل. كما تؤكد الأبحاث النفسية والتربوية أن مرحلة الطفولة (خصوصاً منها فترة رياض الأطفال والطفولة المتوسطة) تشكل القاعدة التي ستتحكم في بناء شخصية الفرد وإعطائها الخصائص العامة التي سوف تحدد ملامحه النفسية والعقلية والاجتماعية. إن الطفولة الأولى تبقى صفحة بيضاء، لكن كل ما يكتب عليها يبقى راسخاً ويستمر تأثيره في وعي أو لاوعي الفرد يافعاً وكهلاً وشيخاً. فالملاحم العامة لشخصية الأجيال التي سوف تعيش في العقود القادمة تصنع الآن، وسيكون لها علاقة مباشرة بأسلوب تربية أطفالنا الصغار وبنموذج التنشئة التربوية والاجتماعية والثقافية المتبع.

فعلى عكس التمثلات السائدة، والتي ترى أن الشخصية تبنى في مرحلة النضج واكتمال النمو، نجد أن «العلبة السوداء» لتكوين الشخصية تعود لمرحلة الطفولة باعتبارها القاعدة الأساس لتشكيل رجل الغد وبناء شخصيته. إن مستقبل الشخص يعود، في أغلب مناحيه، إلى ما تلقاه في مرحلة الطفولة وإلى كيفية استيعابه له؛ وبالتالي فإن مستقبل المجتمع برمنه يعود إلى طبيعة التكوين، الذي تلقاه الأطفال في هذه المرحلة². كما تتمتع القيم والمواهب التي يتم بناءها في الطفولة الصغرى بقدر كبير من الثبات والرسوخ، بحيث يصعب التخلي عنها بسهولة، لذلك تعتبر هذه السن هي أفضل مراحل غرس واستنبات المواهب والقيم والقدرات، إن البدرة التي سوف تزهر وتثمر في سن الرشد ينبغي غرسها باكراً في الطفولة الأولى.

غير أن المفارقة، التي يمكن تسجيلها هنا، تكمن في أنه رغم كون الطفولة الأولى هي من بين محطات ومدخل اكتساب المعرفة³، التي يمكن أن تكون واعدة، بحيث يتوقع أن يكون لها عائد

- 1 - بينت الإحصائيات الصادرة عن برنامج الأمم المتحدة أن (40%) من السكان في العالم العربي يوجدون في الشريحة العمرية من (0) إلى (14) سنة.
- 2 - قضايا الطفل من منظور إسلامي (2006)، مقال أحمد بن عبد العزيز الحليبي، الإعلام وثقافة أطفال المسلمين، ضمن أعمال الندوة التي عقدتها الإيسيسكو، ص. 351.
- 3 - يتكون 85% من بنية الدماغ في السنوات الثلاث من العمر.

معرفي مستقبلي مهم ، فهي مع ذلك تبقى مهمة ، وخارج دائرة اهتمام البرامج التربوية والتعليمية الرسمية في العديد من البلدان العربية التي تولي عنايتها لمرحلة التعلم في المدرسة النظامية .

2 - ثقافة الطفل :

تعد ثقافة الطفل ، على عكس ما يعتقد البعض ، لبنة أساسية لثقافة المجتمع برمته ، وذلك لكون طفل اليوم هو باني ثقافة الغد؛ فالمستقبل في هذا الزمن المتسارع أصبح يتداخل مع الحاضر . وبالتالي فإن ثقافة الطفل ، من حيث هي تشكيل لوجدان الصغير ومخياله ، هي قاعدة تمارس تأثيرها عند رسم معالم الثقافة في المستقبل . وما دامت ثقافة الطفل هي قاعدة تتأسس عليها شخصية الفرد في المستقبل ، فإن الانشغال في إنتاج هذه الثقافة يعتبر «صناعة» للمستقبل؛ وذلك لأن مهارات الفرد وقدراته وقيمه وملامحه العامة إنما تبنى في الطفولة المبكرة والمتوسطة؛ وما سيأتي فيما بعد هو مجرد نمو للبذرة التي تم زرعها .

وقد شهدت المجتمعات عبر التاريخ تنوعا في الثقافات وفي أدواتها ووسائطها؛ حيث تم الانتقال ، في العصور الحديثة ، من مرحلة ثقافة الحداثة إلى ما بعد الحداثة؛ وانتهى التطور بظهور معالم ثقافة جديدة اصطلح على تسميتها بـ " الثقافة الإلكترونية " ، وهي ثقافة ورثت بعض قيم المرحلتين السابقتين ، لكن مع إعطائها بعدا مُعولما ، يهدف للتذويب وللتنميط الثقافي عن طريق الترويج للقيم الفردية والبراجماتية والاستهلاكية . وقد وفرت البنية التحتية التي واكبت هذه الطفرة ، والمتمثلة في تكنولوجيا والإعلام والاتصال (TIC) ، نشر هذه الثقافة على نطاق واسع في كوكبنا . وعلى عكس ثقافات سابقة ، فإن هذه الثقافة الجديدة لم يعد الغرب هو مركزها ، بل صارت تشارك فيها ، ولو بقدر ضئيل ، مراكز أخرى ، وذلك بفضل شبكة المعلومات والاتصالات التي جعلت العالم قرية صغيرة تتواصل فيما بينها .

فأين هو موقع الطفل العربي المسلم وثقافته من هذه الموجة الإلكترونية ، التي ورثت مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب ، وما فتئت تكتسح العالم بشكل جارف؟

لقد انبهر الجميع بهذه الثورة المعلوماتية ، فالآباء منقسمون بين فئة المتباهين بانخراط أبنائهم فيها ، وبين فئة أخرى ممن شملهم الذهول والريبة منها ، دون إغفال الإشارة إلى أن فئة أخرى لا تزال غافلة تماما عن الموضوع . أما الأبناء فقد بدأت تخلق ألبابهم ما تتيحه مواقع الانترنت ، وشبكات الاتصال الاجتماعي من تفاعل ، ومن اختزال للزمان والمكان (نقرة خفيفة تفتح أمامه طوفانا من المعارف والألعاب والفرجة والتسلية والتواصل) ، لكن دون وعي حقيقي بما يحقد بهم من مخاطر سلب الهوية وخلخلة القيم الاجتماعية .

ولكن مَنْ يستطيع أن يفصل في هذه الثقافة الإلكترونية الزاحفة بين الغث والسمين؟ ويميّز بين الصالح فيها والظالم؟ ثم مَنْ يستطيع أن يؤمّن سبل الحماية والأمان والاطمئنان لأطفالنا؟ وكيف

نستطيع تمنيع أطفالنا ضد التعرض للآثار الجانبية السلبية للثقافة الالكترونية، خصوصا إذا علمنا أن الرقابة الذاتية تكون عادة إما ضعيفة لدى الأطفال أو منعدمة؟

3 - العولمة :

هناك أدبيات كثيرة حول العولمة وحول الإشكالات المرتبطة بها، لكننا سوف نركز في هذه الورقة على الأبعاد المتعلقة بتأثير ثقافة العولمة، عبر وسائطها الالكترونية الحديثة، على ثقافة الأطفال وعلى تفتح شخصيتهم في بيئة أسرية متوازنة.

العولمة، إجمالاً، هي تجلي للصيرورة الواحدة للعالم التي تتهاوى فيها حدود الزمن والمكان. فبفضل التوسع الكبير الذي حدث على مستوى اقتصاد السوق والتبادل المادي والرمزي، حدثت طفرة تمثلت في انتقال الشركات المتعددة الجنسية من المجال الوطني إلى المجال الكوني⁴؛ غير أن توسع اقتصاد السوق ليس هو المرجعية الوحيدة للعولمة، بل هناك ترسانة إلكترونية سهلت الأمر، وهي التلوث المدعو بتكنولوجيا المعلومات والإعلام والاتصال. لقد أصبح العالم، إذن، كوكبياً بفضل التقدم المحرز في تقنيات المعلومات والإعلام والاتصال. كما دعم ذلك كله ظهور ثقافة كونية تعتمد الصورة كلغة جديدة، لها قدرة بلاغية أكثر من الكلمة. وهكذا ملأت حضارة الصورة العالم بالصور عبر الفضائيات والحاسب وأفلام الفيديو وغير ذلك.

لم تكتف العولمة بفرض طابعها الخاص على الثقافة، بل صنعت ثقافتها الخاصة، وذلك كتعبير عن ثقافة الحالة الحضارية المعاشة حالياً⁵؛ وتسعى ثقافة العولمة لفرض تنميط ثقافي كوني سوف تشكل الثقافة الالكترونية فيه شبكة يتعاظم تأثيرها؛ وهي تعتمد ثقافة الصورة والبلاغة الالكترونية، التي تتيح فرصاً للاتصال غير مسبوق، لكنها تحمل ضمناً خيارات ظاهرها هو التسلية والاستمتاع والتواصل، أما باطنها فهو الترويج لثقافة حسية تعتمد الصورة كلغة، والحواس كأبجدية، والسعي للإثارة على حساب تعطيل تام للمعايير العقلانية⁶.

وإذا كان للعولمة أبعاد حتمية لا سبيل للتخلص منها، فإن لها أبعاداً أخرى احتمالية، قابلة للتدخل والتعديل. لذلك نجد في دلالة العولمة ازدواجية تتمثل في ما هو موضوعي (دور تقنيات المعلومات والإعلام والاتصال في تقريب أبعاد العالم)؛ وما هو مشروع إيديولوجي (تنميط أحادي ثقافي انطلاقاً من مرجعية القطب الواحد المهيمن عالمياً)

4 - بلقزيز عبد الإله 1988 عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة، أعمال ندوة العرب والعولمة، 1997، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

5 - حجازي، مصطفى (2010). علم النفس والعولمة، رؤى مستقبلية في التربية والتنمية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص. 144.

6 - حجازي، مصطفى (1988). حصار الثقافة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص. 12.

تعتبر الطفولة من بين الشرائح العمرية الأكثر استهدافا من قبل العولمة، وذلك من حيث أنها تسعى لفرض نموذج ثقافي غربي على أساس أنه كوني؛ ووسائلها في ذلك هي اختراق ثقافي أصبح يعتمد على الثقافة الإلكترونية التي توفرها تكنولوجيا المعلومات والإعلام والاتصال. وتمثل جدة وجاذبية هذه الوسائل العامل الحاسم في انخراط الأجيال الناشئة في هذه الثقافة الإلكترونية وفي تقبلهم لتأثيرها. وفي خضم ذلك بدأ يتقلص بالتدريج دور الثقافة الأسرية والمدرسية بحكم تقليدية ووسائلها التربوية وعجزها عن منافسة التكنولوجيا الإعلامية، التي غزت البيوت والمدارس. . . يمكن إذن الاختراق الثقافي الإلكتروني في تراجع وظيفة الأبوين في التورث الثقافي للأبناء، الذي من شأنه الحفاظ على اللحمة والهوية الذاتية؛ وفي هذا السياق نعيش تجاذبا بين الأسرة التي تحاول الحفاظ على أبنائها، وبين العولمة التي تسعى إلى إعادة تشكيل الأطفال. ولا يتعلق الأمر بالسياق العربي فقط، بل نجد أن حتى المجتمعات الأكثر رسوخا في التحديث والديمقراطية، أخذت تتوجس من ذوبان الهوية وخلخلة الانتماء وانفلات زمام التحكم في عمليات التنشئة التربوية والاجتماعية.

ويبدو الآن أن الاختراق العولمي الزاحف في هذا المجال (ثقافة الطفل) الذي لم نكن نعيده كبير اهتمام كشف عن أوجه القصور وانعدام المناعة في نظام التنشئة التربوية لدينا؛ ويعتبر هذا بمثابة أكبر تحدي يواجه نظامنا التربوي والتثقيفي والاجتماعي.

وانطلاقا من أن وسائط ثقافة العولمة كتكنولوجيا الإعلام والاتصال تلعب دورا كبيرا في بناء ثقافة الطفل، حاليا، في أبعادها الحسية الحركية والمهارية والقيمية، فمن الضروري القيام بتحليل مضمون هذه الثقافة الإعلامية المحمولة عبر التلفزيون والفيديو والألعاب الإلكترونية، أو عبر الإنترنت. وذلك لتبيان مرجعياتها وتحليل آليات اشتغالها والقيم المسكوت عنها فيها.

أولا: آلية التنميط والتذويب في الثقافة الإعلامية والإلكترونية

1 - على مستوى الإعلام المرئي

تجمع دراسات عدة على أن التلفاز أصبح يمثل، في عصر عولمة البث الفضائي، أعظم الوسائط المؤثرة في تكوين المعارف والاتجاهات والقيم؛ فهو يلعب دورا حاسما في تشكيل اتجاهات الرأي العام وقولبتها حسب مرجعياته الخاصة، كما يملك وسائل التأثير الفكري والقيمي والثقافي. وإذا كان ذلك صحيحا بالنسبة للراشدين، فما بالك بالأطفال الذين لم تنضج لديهم بعد ملكة التمييز.

إن لاقتصاد السوق، بصفته أساس مشروع العولمة ثقافته التي تتمثل في الصورة التلفزيونية⁷ والهدف من تعميم ثقافة الصورة عبر التلفزيون أو غيره هو التحكم في الإدراك بواسطة

7 - حجازي، مصطفى (2010). مرجع ذكر سابقا، ص 144.

الإثارة بمختلف تلاوينها، بغية توجيه الخيال وتنميط الأذواق والسلوكيات⁸. وهذه هي الخلفية الإيديولوجية لثقافة الصورة: تنميط ثقافة الاستهلاك لدى كل الشرائح ومنها الأطفال، الذين يمكن أن يكون لهم عائد ربحي مهم بحكم حجمهم الإحصائي. إن الإرسال الموجه للأطفال يرمي إلى حشوهم «بالثقافة الأحادية للسلعة»، وتربيتهم على الاستهلاك والإثارة، وتقصى متع اللحظة الراهنة.

يكيف التلفاز، إذن، حياة الناس ويتحكم في مدركاتهم ويحدد أذواقهم. فالحقائق لم تعد هي ما يحدث في الواقع، بل هي الصورة التي يقدمها التلفزيون عنها. يضاف إلى ذلك مزج الواقع الفعلي بالواقع الافتراضي من جراء استخدام تقنية الحاسوب. وإذا كان ذلك يشوش على إدراك الراشدين للحقائق كما هي، فما بالك بالنسبة للأطفال الذين يتميزون بنوع من التلقائية والبراءة في تعاملهم مع مكونات المحيط ومؤثراته؛ وذلك في ظل غياب تام لأي قانون يحمي حقوق الأطفال المشاهدين⁹.

إن هذا الواقع الافتراضي، الذي يتم مزجه بواقع فعلي، يخلق عالما جديدا من ثقافة الصورة، وهو عالم له تأثيره القوي؛ مما حدا ببعض الباحثين إلى إطلاق تسمية «البلاغة الالكترونية» عليه، وهي بلاغة لا يمكن للمشاهد إلا الاستسلام لها والانبهار بها¹⁰.

لقد حولت، إذن، العولمة الصراع من مجال تشكيل الوعي إلى مجال تشكيل الإدراك، وذلك من خلال الصورة. فالصورة هي وسيلة السيطرة على الإدراك، وصولا إلى تسطيح الوعي، والارتباط بما هو على السطح من صور ومشاهد ذات طابع إعلامي - إعلاني مستفز للانفعال¹¹. وبذلك نلاحظ دور الصورة في التنميط الكوني، وكيف يتم توجيه الخيال وتنميط الذوق وقولية السلوك.

أثير جدل كبير حول تأثير العنف في أفلام الرسوم المتحركة، وأجريت العديد من الدراسات التي أثبتت تأثر الطفل بهذا النوع من العنف، وميله إلى محاكاته في سلوكه اللاحق. وذلك انطلاقا من أن هناك رغبة شديدة لدى الأطفال في تقليد الأبطال والشخصيات الناجحة في الخيال، سواء كان موضوع التقليد خيرا أم شرا. بينما شككت بعض الآراء الأخرى في مدى خطورة ذلك، على اعتبار أن مشاهدة أفلام العنف تعمل على خفض التوترات النفسية العنيفة لدى الطفل. إلا أن ما لا يمكن الخلاف حوله هو تأثير العنف الحي والفعلي الذي يبيث في نشرات الأخبار متضمنا صورا

8 - الجابري، (1988) العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، أعمال ندوة العرب والعولمة، 1977، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.

9 - حجازي، مصطفى (2010)، مرجع ذكر سابقا ص. 145.

10 - حجازي، (1998)، مرجع ذكر سابقا، ص 31.

11 - حجازي، (2010)، مرجع ذكر سابقا، ص 145.

مروعة للتفجيرات والقتل والإبادة. إن لهذه المشاهد أثارا نفسية صادمة على الكبار والصغار على السواء.

أما عن العنف الذي يسلي الطفل، فإنه حينما يبلغ عتبة معينة، فإنه سيؤدي إلى تراكم كفي للإثارة يعجز الطفل عن التحكم فيه، مما يدفعه إلى السلوك العنيف في نهاية المطاف. ويبين ذلك صعوبة تقدير متى بالضبط تتحول إثارة التسلية إلى إثارة العنف. وإذا أضفنا إلى أخبار العنف نسبة أفلام العنف المتزايدة في الشاشة الصغيرة، نلمس مقدار جرعة العنف التي يستدخلها الطفل يوميا¹². كما أن هناك إغراقا للأطفال وغيرهم بسيل من الإعلانات عبر الشاشة، إذ الطفل الأمريكي حين يصل إلى نهاية المرحلة الثانوية يكون قد تعرض لما يقرب من 500 ألف إعلان، تُكس في ذهنه كإثارات دماغية، مما يؤدي إلى تشبيك عصبي يجعل المثيرات الجديدة تمر من خلاله. وبالتالي فإن موضوع الإشباع سيصبح هو السلعة التي تم إغراق ذهن الطفل بالإعلان عنها. أما على المستوى العربي فقد قام أحد الخبراء العرب¹³ برصد ما تبثه إحدى القنوات العربية المتخصصة في الأطفال لمدة أسبوع واحد فقط، فوجد أنها عرضت 300 جريمة قتل في برامجها المتلفزة.

يتبين من خلال بعض الدراسات أن نسبة لا يستهان بها من الأطفال في مستوى الابتدائي يقضون من الوقت في مشاهدة الفضائيات أو ممارسة ألعاب الفيديو أو الانترنت أكثر مما يقضون في حجات الدراسة. وتؤشر هذه الظاهرة لتحولات عميقة، واكبت زحف العولمة، ولحقت مجالا كان إلى وقت قريب يعتبر عالم براءة الأطفال؛ وهو عالم يمتاز بالنمو التلقائي الطبيعي للطفل، في وسط عائلي ومدرسي، بعيدا عن المؤثرات الخارجية بما تحمله من تسلية تبطن العنف والصراع والتخويف وتساعد على العزلة. إن زحف العولمة على شريحة الأطفال ساهم، إذن، في زعزعة تلك البراءة وفي تشويه هوية الطفل من خلال خلخلة نسق القيم لديه.

2 - على مستوى الوسائط الالكترونية الموجهة للطفل

يتم تمرير الثقافة الالكترونية الموجهة للطفل عبر عدة وسائط، تتشكل من الرسوم المتحركة وأفلام الكارتون¹⁴ والحاسوب وألعاب الفيديو وغير ذلك من الوسائل الجذابة. وطبعاً تؤثر أفلام الكارتون والرسوم المتحركة المستوردة والمذبذبة وغيرها في وجدان الطفل، بحيث ينماهى الطفل مع النماذج التي تقدم له. إن التعرض للصور المتحركة المرفقة بالصوت، في مراحل مبكرة من حياة الطفل، يتلاءم مع خصوصية المرحلة الحسية الحركية التي يمر منها الأطفال؛ فبعد الاستجابة

12 - ترى رابطة علم النفس الأمريكية أن الطفل الأمريكي في نهاية الابتدائي يكون قد شاهد 8000 حالة اغتيال، و 100 ألف اعتداء عنيف في التلفاز، بمعدل 3 ساعات مشاهدة يوميا.

13 - ذ. عبد المنعم الأشنهي من المجلس العربي للطفولة و التنمية.

14 - في سنة 2000 كان إنتاج اليابان من أفلام الكرتون حوالي 22 ساعة أسبوعياً، أما سنويا فإن الإنتاج يبلغ حوالي 1144 ساعة تقريبا؛ أما الدول العربية مجتمعة، ففي أحسن الأحوال، كانت لا تنتج آنذاك سوى 30 ساعة سنويا.

الاجيائية يقوم الطفل بتخزين تلك الصور لتصبح جزءا من رصيده الوجداني والتربوي . يشاهد الطفل، إذن، البرامج وأفلام الكارتون وهو في مرحلة تلقي كل ما يرسل له، فتنساب لديه القيم والاتجاهات إلى اللاوعي، من دون تقويم أو غرلة (غياب الرقابة الذاتية).

لقد حمل التطور السريع في مجال الثقافة الالكترونية أساليب جديدة لاستمالة الطفل، ودفعه للإدمان . وهناك محاولة لتغليب وعي الطفل في نمط ثقافي محدد، يؤمن بقيم الصراع والريح والقوة وتغليب النزوات والدعوة للفردية ولحرية بدون مسؤولية.

ومن الطبيعي أن تنشأ لدى الطفل المسلم دوافع نفسية متناقضة، بين ما يتلقاه عبر الثقافة الالكترونية الرائجة، وبين ما يعيشه في واقعه اليومي في البيت وفي المحيط الاجتماعي؛ مما يؤدي إلى شعوره بحالة نفسية تتجاذبه فيها قيم متنافرة، وهو الأمر الذي يخل بمبدأ التناغم والانسجام، الذي يُفترض في ما يُقدم للطفل في مضامين مواد التسلية والتعليم والتثقيف.

لقد ولجنا إلى العصر الرقمي وأطفالنا لا يعرفون من هذا العصر إلا بوابة «الألعاب الإلكترونية»، التي تتسابق الشركات المنتجة على ترويجها وتسويقها في بلداننا، علما بان الغالبية العظمى من هذه الألعاب يحمل قيما دخيلة وغير ملائمة، تساعد على تركيز الجرعات بغية إحداث استلاب فكري جارف ومقصود¹⁵. إن هناك سيرورة ممنهجة لمباشرة عملية «غرس ثقافي» في عقول أطفالنا، يُتوقع لها أن تعطي تمارها لاحقا في مرحلة الشباب والكهولة¹⁶. كما أن لواقع ازدواجية الثقافة والتعليم، في المجتمع العربي، انعكاسات سلبية على ثقافة الطفل؛ فيقدر ما يحرص التعليم النظامي على ترسيخ القيم الأصيلة والخصوصية الذاتية، بقدر ما تسعى الثقافة الالكترونية المتداولة إلى زحزحة ذلك، من خلال مضامين القيم الاستهلاكية التي تمررها الثقافة الالكترونية، إما بشكل ضمني أو مباشر.

3 - ربحية صناعة التسلية

تبدو تجارة التسلية، في الظاهر، وكأنها تعانق براءة الطفولة، لكن باطن الأشياء يشير إلى أن التسلية هي منتج يحمل في طياته بذور قيمية، يتم غرسها وترسيخها في شخصية الطفل منذ نعومة أظافره. فالي جانب هيمنة منطق السوق والربحية على صناعة التسلية، هناك ترويج ضمني «خفيف» (Light) لقيم الغرب ونماذجه في التنشئة الاجتماعية، وهي التي لا تتورع في

- 15 - ليس الأفق معتما تماما، فقد اخذ بعض الأفراد الرواد في الاهتمام بهذا المجال لعل من أبرزهم الأستاذ رافع يحي من حيفا (فلسطين) حيث قام بمجهود فردي وذلك بتأسيس- حسب علمنا- أول موقع إلكتروني عربي مختص بأدب الأطفال على شبكة الانترنت تحت عنوان «أدب الأطفال» www.adabfat.com. كما صدرت لاحقا، على أقرص مدمجة، مئات الأعمال الخاصة بالطفل العربي وأنشئت مئات المواقع حول ثقافة الطفل على شبكة الإنترنت.
- 16 - المجلس العربي للطفولة و التنمية (2009): «الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية المختلفة»، دار العلوم، القاهرة.

أن تخاطب الغرائز الطفولية لدى الناشئ. ومن الواضح أن الهدف هو غرس مبادئ لقيم غربية متوحشة، في هذه السن المبكرة، في منطقة اللاوعي لدى الأطفال. علماً أن كل ما يتم غرسه بهذا الشكل يصعب تقويمه أو تغييره في سن متقدمة. فالطفل لن ينظر للعالم إلا حسب ما جُبل عليه منذ نعومة أظفاره. إن تمييط وتعليب الطفل في نموذج ثقافي وحضاري، يعكس بحق النزوع المنهج للعولمة للاختزال الثقافي والحضاري وتفكيك الاختلاف. إن العالم الخيالي الذي تروجه إمبراطورية «والت ديزني» الشهيرة لتسليية الأطفال يخفي، إذن، هندسة منظمة لترويج قيم العولمة المتوحشة.

ثانياً : استعمالات غير متوازنة وآثار غير مرغوبة

بينت الأبحاث التي أجريت في بعض البلدان العربية حول مواد تسليية الطفل أن الرسوم المتحركة تشكل نسبة 88% مما يشاهده الأطفال، سواء عبر التلفاز أو الفيديو أو غيرهما؛ كما أن هناك إقبالا متزايدا على مشاهدة اليوتوب والأفلام التي تنتجها الشركات الكبرى في مجال صناعة التسليية. وإذا كانت تلك المشاهدة تتيح تنمية خيال الطفل ونقله إلى عوالم أخرى لم تخطر بباله، فإنه غالباً ما ينتج عن هذه المشاهدة، خصوصاً في حالة الإدمان، سلبيات¹⁷ منها:

1 - أضرار بدنية

يحدث الإدمان على الوسائط البصرية آثاراً جانبية كاضطراب نظام النوم والتغذية لدى الطفل، والشعور بالإرهاق وبالخمول الذهني، مما قد يؤدي إلى الغياب المدرسي.

2 - شحن الأطفال بسلوك عدواني

يلجأ عادة كتاب السيناريو في الغرب إلى العنف والجريمة وظاهرة البطل الذي لا يقهر كوسيلة لتشويق الأطفال للإقبال على المشاهدة، وذلك لضمان وفرة العائد المالي ألمجز للمنتجين وللشركات المتعددة الجنسيات. ومن شأن هذا الاختيار أن يؤدي إلى شحن الأطفال بسلوك عدواني، هو الذي تطلق عليه إحدى الباحثات صفة (العدوان المتلفز)¹⁸. وقد حلل علماء النفس آلية هذا العنف المتلفز في أن تلك المشاهد المصورة تقدم نموذجاً ناجحاً لممارسة العدوان، وهو ما يمنح المشاهدين الدافع إلى تقليده؛ فالشخص الذي يتعود على مناظر العنف، لن يلتفت إلى بشاعتها، بل سوف

17 - من الإنصاف التأكيد هنا على أن ليس كل ما يشاهد سيئ، بل إن الإشكال يكمن في أن الآثار السلبية للوسائط الإعلامية في مرحلة الطفولة يعتبر أشد وأقسى على الطفل، الذي لا يستطيع في هذه المرحلة التمييز بين الغث والسمين، وبين الواقع والخيال.

18 - بينت دراسة كانت قد أجرتها دة. سامية سليمان رزق من كلية الإعلام جامعة القاهرة، أن 61.3% من الأطفال قد تأثروا بما شاهدوه في المسلسل الكرتوني الأمريكي «سلاحف النجا»، وتجلّى ذلك في استعمالهم لمصطلحات بذيئة تنتمي لقاموس العنف اللفظي.

يتعامل معها كمظهر لتملك القوة من أجل تحقيق التفوق والبطولة. إن الهدف هو جعل العنف ظاهرة مبتذلة تغري بالانتقال إلى الفعل في لحظة بينية عابرة بين الحلم واليقظة¹⁹.

لو أخذنا على سبيل المثال اللعبة المسماة «وقت للقتل» (Time to kill) ، يبدو للوهلة الأولى أنه عنوان مخيف ، ومع ذلك فهو يملأ الشاشة ، وستكون مهمته تهيئة ذهن الطفل لممارسة القتل حينما يشرع في اللعب ، وهذه هي الرسالة الأساسية التي يتضمنها العنوان الموجه للطفل الصغير . . . وهكذا يبدأ الطفل اللعبة متحفزاً مستعداً لقتل خصمه ، ويشعر أن هذا القتل مشروع ، بل لا يمكنه الفوز في هذه اللعبة بدون تحقيق هدف قتل خصمه . الأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن شروع الطفل في اللعبة يواكبه ظهور صور لمواقف غير محتشمة؛ وانطلاقاً من قانون الارتباط الشرطي ، فإن تمكن الطفل من تحقيق هدف القتل ، سوف يقترن باسترجاع القيم غير المحتشمة ، التي كانت تخلل «اللعبة» ، وهو عامل أساسي في ترسيخ تلك القيم الدخيلة .

وتثير مشاهدة بعض المواد العنيفة الفزع والشعور بالخوف عند الطفل ، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بمخاطر محددة بشخصية البطل والمواقف التي تتهدده ، خاصة إذا كان الطفل صغيراً ويتخيل كل الأمور التي يراها على أنها واقعية . بل إن أفلام الرعب تخيف ، أحياناً ، حتى الكبار فبالأحرى الصغار . وغالباً ما نجد أن للإنتاج المستورد في مجال أفلام الكارتون وغيرها سلبيات تؤثر على شخصية الطفل في أبعادها الحسية- الحركية والنفسية والوجدانية والعقلية ، إذ تجعله طفلاً سلبياً ، يتمثل خطاب القوة ويميل إلى العنف ، وإلى غريزة العدوان والإقبال على نوازع الشر . فلام المرعبة أأو من المؤكد أن ذلك سيؤثر على توازن الطفل واطمئنانه وسعادته . كما أن الآثار الاجتماعية قد تصل إلى حد انعزال الأطفال لفترات طويلة يومياً ، مما يقلص من فرص تواصلهم مع الآباء والأقرباء والأصدقاء ، رغم أهمية ذلك على مستوى نمائهم المهاري والوجداني والقيمي .

3 - المغالاة في استهلاك الصور

من المؤكد أن للصورة دوراً مساعداً في التعليم والتعلم ، بل إن هناك من يرى أن صورة واحدة تقوم مقام ألف كلمة أو أكثر ، غير أن تأثير «حضارة الصورة» ، التي نعيشها حالياً ، جعل من الصورة وسيلة مثلى في التعليم ، وفي حالات كثيرة أصبحت الوسيلة الوحيدة بحيث غطت على وسائل أخرى لا تخلو من فائدة . ومن المعلوم أن الإفراط في استعمال الوسائل السمعية والبصرية لا يخلو من سلبيات منها:

- أن الصورة لا تعكس دائماً للواقع ، بل إنها غالباً ما تكون تركيباً لواقع ، تنتج جهة ما ، وذلك لخدمة مرجعيات أو أجندة خاصة .

19 - حجازي ، (2010) ، مرجع ذكر سابقاً ، ص. 150 .

- إن الصورة تقوي قدرات التلقي السلبي على حساب قدرات التعلم النشط المعتمد على فعالية ذاتية، يتم فيها تحريك كل القدرات والملكات. وفي هذا الإطار كان «بياجي» يؤكد على أن التعلم هو حصيلة عمليتين هما: الاستيعاب والتلاؤم. وفي كلا العمليتين هناك تفكير وإعادة بناء لموضوع التعلم، يتم بواسطة تفعيل قدرات وكفايات ذاتية، وليس هناك تلقي سلبي، كما في حالة الاستقبال السلبي للصور في التلفاز أوفي غيره من الوسائط²⁰. إن لتنمية قدرات التلقي السلبي على حساب غيرها من القدرات، آثارا سلبية على التحصيل الدراسي وعلى التفوق والإبداع، الذي غالبا ما تظهر علاماته الأولى منذ مرحلة الطفولة.

- إن الأطفال الذين يدمنون على مشاهدة التلفاز ينضجون في مجال التخيل والملاحظة المصورة، بينما تقل قدرتهم الرقمية، التي تساعد على تنمية استعداداتهم القرائية (تعلم القراءة والكتابة والحساب). يضاف إلى ذلك أنه في الكثير من الحالات، فإن الوسائط الإعلامية تقدم مادة ضحلة، لا تتناسب مع الوقت الذي يهدر في التلقي²¹.

- هناك من يدعو إلى محو الأمية الإعلامية، وهي الشكل الجديد من الأمية الذي نعاني منه جميعا، بحيث أصبحت الصورة هي شكل جديد للكتابة، إنها لغة جديدة. لذلك ينبغي تعلم قراءة الصورة، بنفس الشكل الذي سبق وأن تعلمنا به قراءة النص المكتوب. إن «لأبجدية الصورة» نحوها وصرفها وبلاغتها²².

4 - محاذر الحاسوب

مع انتشار الحواسيب في البيوت، أصبح الأطفال يفضلون برمجيات الألعاب الالكترونية، التي تم تعميم أشهر أسمائها بفضل العولمة. وبالطبع فإن للاستعمال الرشيد لهذه البرمجيات آثارا إيجابية، من حيث أنها مرتبطة باختيار الطفل لها، واختياره للأوقات وللأمكنة الملائمة لمشاهدتها؛ على عكس برامج التلفاز. كما أنها تساعد في تسلية الأطفال وتحقيق ذواتهم، حينما يفوزون في تلك اللعب؛ كما أنها ترفع قدرتهم على التركيز وحل المشكلات وتطوير هواياتهم وتعلم اللغات الأجنبية... غير أن هذه العناصر الإيجابية لم يحصل إجماع حولها، نظرا لأن البعض يرى مثلا أن تعليم وتثقيف الناشئة وتلقينهم اللغات الأجنبية، يكون أكثر فاعلية من خلال الاتصال البيني المباشر مع المدرس، وفي سياق البيئة اللغوية والاجتماعية المرغوبة. كما أن فاعلية الحاسوب في التعليم والتثقيف لا تزال دون فاعلية الوسائل التقليدية، التي يتم فيها تفاعل حي مع المحيط، خصوصا في مرحلة الطفولة... أما الآثار السلبية للحاسوب فهي متفاوتة، لدى المدمنين عليه، بين نقص التواصل الاجتماعي لديهم مع المحيط الأسري، وتدني الالتزام بالواجبات المدرسية، والانعزال

20 - محمد يتيم (2002) مداخلة في ندوة قضايا الطفل من منظور إسلامي، الابسيسكو، الرباط.

21 - د. أحمد بن عبد العزيز الحلبي، ذكر سابقا، ص. 366.

22 - فيليب كايو Ph. Queau مجلة لومند ديبلوماتك، عدد غشت 1993، مقال بعنوان ثورة الصور الافتراضية.

والخمول وضعف الحركة المؤدي إلى السمنة. أما الإنترنت فإن المغلاة فيه، في سن الطفولة، سيقص من قدرة تلك البراعم الناشئة على التفاعل والتواصل مع الآخرين.

لقد بدأ إدمان الحاسوب والانترنت يحل محل إدمان التلفاز، الذي كان إلى وقت قريب يستحوذ على اهتمام الأطفال واليافعين، بما يحمله ذلك من الانغماس في العالم الافتراضي. ولا شك أن الانسلاخ من الواقع الموضوعي والارتقاء في «الخلوة» مع شاشة الحاسوب في العالم الافتراضي، سوف يؤدي إلى فراغ عاطفي، وإلى عدم استقرار نفسي واجتماعي. ولا يمكن استعادة التوازن المفقود إلا بتكثيف التواصل الأسري المباشر²³.

وفي هذا السياق نشير إلى أنه بدأت شيئاً فشيئاً تحل لدى الأطفال، وخصوصاً لدى اليافعين، مرجعية الشبكة (www)، محل مرجعية الأسرة والمدرسة، خصوصاً على صعيد التعامل مع المعلومات والاتصال بالعالم الخارجي. إنهم أصبحوا «أبناء الدوت كوم» بعد أن كانوا أبناء آبائهم ومدرسيهم²⁴.

5 - خلخلة النظام القيمي والأخلاقي

عندما يشاهد الطفل أبطالا في بعض الرسوم أو الأفلام أو الألعاب يتحكمون في الكون دون رقيب أو حسيب؛ وتصبح إرادتهم فوق كل إرادة، لا شك أن نفسيته سوف تهتز، بسبب ما يُعرض عليه في تلك الوسائط من صور خيالية، تدور حول المبالغات والأساطير الخارقة التي توحى ضمناً بالتشكيك في مرجعيته القيمية. فكيف سوف ينقبل الطفل المؤمن بعقيدة دينية ما سوف يراه في فلم عن بطل خيالي، له قدرة على إيقاف حركة الكون أو منع الموت وفعل الخوارق والمعجزات؟²⁵؛ لا شك أن ذلك سوف يكرس في نفسية الطفل الصراع بين مبدئين، مما سوف يفتح أبواب الشك لديه، وقد يزحزح إيمانه²⁶.

بالإضافة إلى تقديم مفاهيم عقديّة وفكرية لا تلاءم حقائق العقائد وتعاليمها، نجد أن بعض مشاهد أفلام الكارتون مخلة بالحياء، وصادمة للقيم الدينية ومتعارضة مع الهوية الذاتية، وتهدف إلى «ترويض» الطفل في صغره للتعايش مع تلك القيم الدخيلة في كهولته. (ما طرح مثلاً في عدة مسلسلات كـ«عرائس البوكيمون» و«الديجيمون» و«أبطال الديجتال»، هو دليل واضح على قدرة الإنسان -حسب زعمهم- على خلق بعض المخلوقات النافعة أو الشريرة، التي يمكن أن تساعد عند الحاجة. وكذلك السخرية من الخالق، التي تم تجسيدها علناً في إحدى حلقات «توم

23 - حجازي (2010)، مرجع ذكر سابقاً، ص.189.

24 - نفس المرجع، ص. 183.

25 - مثلاً إن البطل في السوبرمان و بو بّي وغيرهما يطير في السماء، وينسف الجبال والبحار نسفاً، ويشق القمر بسيفه، ليس هذا فحسب بل إنه يطلق أشعة من عينيه فتصنع المعجزات.

26 - أحمد بن عبد العزيز الحلبي(2006) مرجع ذكر سابقاً، ص. 356.

وجيري» من خلال عرض يوم البعث والحساب والصراف بأسلوب رخيص فيه استهزاء واضح بالعقائد الدينية). وفي ارتباط بذلك نسجل أيضا تشويه الكثير من الحقائق التاريخية، منها على سبيل المثال، تشويه مقصود لحضارة وتقاليد المجتمعات الشرقية والسخرية من صورة الإنسان العربي، والتي غالبا ما تقترن في الرسوم المتحركة بالرجل الشرير المتطلع لسفك الدماء وحبك المؤامرات واحتقار المرأة. ورجل بهذه المواصفات سوف ينتشي المشاهد بهزيمته في نهاية القصة الكرتونية، وهذا هدف خفي لهذه الثقافة التي تروج لإفراغ الهويات من مضمونها الحقيقي ونشر للتسيب القيمي²⁷.

تفتقر بعض وسائط الثقافة الإلكترونية للمعاني التربوية الرفيعة، ولا تهدف إلى غرس الأخلاق والقيم النبيلة، بل هناك سعي إلى تلميع القيم الهابطة والغرائز المنحطة والسلوكيات المشجعة على الاستهلاك وهدر الوقت. وفي هذا السياق سوف يتقلص، دون شك، تأثير القيم التربوية التي تركزها الأسرة والمدرسة، على اعتبار عدم تكافؤ جاذبية الوسائل والوسائط المستخدمة؛ وهو ما يؤدي إلى تضاؤل التحصين الأسري ضد المخاطر العقدية والأخلاقية والنفسية والصحية²⁸.

6 - غياب البطل في الثقافة الوطنية الموجهة للأطفال

تعاني الثقافة المقروءة والمصورة المنتجة محليا والموجهة للأطفال والفتيان من عجز المبدعين عن إبداع شخصية بطل - نموذج، مستوحى من الثقافة العربية، سواء على مستوى القصصي أو الحكائي أو على مستوى الرسوم المتحركة والأفلام وغيرها، وذلك رغم توفر رصيد كمي كبير في هذا المجال²⁹. ويُفسر هذا الغياب مقدار تعلق أطفالنا بأبطال وشخصيات من إنتاج أدب الأطفال الأجنبية، وذلك في ظل انتشار تقليد خاطئ، يُقصر البطولة على الأدب المعياري الموجه للكبار. أما أدب الصغار واليافعين فهو ليس إلا وسيلة لتزجية أوقات الفراغ لدى هذه الفئة. إن القول بإبداع شخصية كرتونية عربية عالمية تنافس «ميكي ماوس» و«بات مان» و«سوبرمان» وأبطال قصة «هاري بوتر» الشهيرة أو غيرها، لا يزال لحد الآن مجرد هدف يصعب تحقيقه في الآجال المنظورة. وتعكس هذه الوضعية عدم التمكن من بناء شخصيات لأبطال في إنتاجاتنا الأدبية الموجهة للطفل، تكون لها القدرة على لعب دور «البطل النموذج»، وتكون مرجعيتها هي الخصوصية العربية، ويتعلق بها الأطفال ويتماهون³⁰ بها؛ كما هو حاصل الآن مع شخصيات وأبطال تروجها الثقافة الإلكترونية الغربية في بيئتنا المحلية.

27 - فيلم علاء الدين الذي أنتجته شركة «ديزني» يستخف بالعربي و يجعله متعطشا لسفك الدماء.

28 - د.محمود محمد سفر (1402 هـ) الإعلام موقف، ص53، تهامة للطبع والنشر.

29 - عبد الرحيم مؤذن، البحث عن بطل جديد، ضمن أعمال ندوة الطفل من منظور إسلامي 2006، الإيسيسكو، ص.163.

30 - التماهي Identification هو عملية نفسية لاواعية يتمثل الشخص بواسطتها بعض خصائص أو صفات شخص آخر، وهو يختلف عن المحاكاة التي هي عملية قصدية.

ففي مجال الأدب المكتوب محليا والموجه للأطفال³¹، نرى أن الطفل، غالبا ما يعامل كمتلقي سلبي، يخضع لعملية التنشئة الاجتماعية، كما يتصورها الراشدون، والتي تختلط أحيانا بنبرة وعظمية جافة؛ حيث يتم أحيانا كثيرة تناسي أن التمتع بالطفولة وإشباع حاجاتها الأساسية هو حق من حقوق الطفل، كما تضمنتها المواثيق الدولية. كما أن هناك شيوعا للكتابة للطفل، تركز على تناول الماضي التليد والمستقبل المنشود، وبين القطبين توجد، بالطبع، مساحة واسعة متاحة لحاضر الطفل الذي يبقى غائبا³². وإذا كنا نجد في الغرب اهتماما كبيرا بثقافة الطفل، ممثلا في إنتاج مجلات وبرامج وأفلام فيديو وأشربة لأطفال ما قبل الدراسة، ناهيك عن كتب مصورة لمن هم في السنة الأولى أو الثانية من عمرهم، فإننا، وعلى الرغم من ظهور بعض المحاولات لاقتحام هذا الميدان، لا نزال نعاني من نقص كبير في هذا المجال، خصوصا في إنتاج كتب موجهة للأطفال لما قبل مرحلة القراءة (5-2 سنوات)³³. وفي هذا الإطار نشير إلى ضعف أو غياب كلي للكتاب المصور الموجه للطفل العربي، الذي لم يتعلم القراءة بعد³⁴. ولا يخفى على أحد أهمية الكتاب المصور، لأنه يثير الطفل ويجذب انتباهه، فهو يتابع توالي الصور، شاحدا خياله، وبالتالي فهو يتقبل الرسالة الضمنية التي يريد الرسام إرسالها له.

ثالثا: حماية الأطفال

1 - دور الأبوين

تعتبر الأسرة هي الحاضن الطبيعي للطفل قبل السادسة، فهي المسؤولة عن رعايته وتربيته، وعند الاقتضاء توكل أمر تربيته لمؤسسات مختصة، كرياض الأطفال، لفترات محددة في اليوم. إن التهديدات التي يتعرض لها الأطفال اليوم، ناشئة عن حدوث تراجع في وظائف الأسرة، ليس فقط في حالة خروج الأم للعمل، بل حتى في حالة بقائها في البيت. والواقع أن الأسر تتفاوت في النموذج التربوي الذي تطبقه، بين تلك التي لديها اهتمام مفرط بالطفل وبين من لديها انحسار هذا الاهتمام، وكلاهما يخالف الحاجيات النفسية والاجتماعية للطفل. فالإفراط يعيق استقلالية الطفل، وهي ضرورية لنموه، بينما التفريط قد يحرمه حتى من بعض حاجياته الخاصة.

-
- 31 - إن تناول الأدب المكتوب للطفل لا ينبغي أن يخفي واقع تقلص القراءة لدى الطفل العربي الذي لا يكاد يتجاوز 7 دقائق في السنة، في مقابل 6 دقائق قراءة في اليوم للطفل الأمريكي.
- 32 - د. هند خالد خليفة/ جامعة الملك سعود / الرياض، «حول تطوير ثقافة الطفل في المجتمع السعودي، أدب الأطفال كنموذج»، www.arabrenewal.com
- 33 - تستهلك البلاد العربية مجتمعة ما لا يزيد على 10% مما استهلكته دولة مثل بلجيكا في مجال الكتابة للأطفال، على الرغم من أن عدد سكانها لا يتجاوز نسبة 10% من سكان الدول العربية.
- 34 - يساعد الكتاب المصور الطفل لكي «يقرا» بمشاهدة الصور، وذلك بمساعدة أحد الأباء أو المربين.

ثقافة الطفل وتحديات العولمة

وتكمن المفارقة في أنه في الوقت الذي تتعاضد فيه أدوار الأبوين لحد كونها أصبحت حاسمة، نجد في المقابل أن مستوى وعي الآباء بأدوارهم يعتبر ضعيفا، وأحيانا منعدما. لذلك يتحتم تكثيف برامج التوعية والتكوين للأبوين في وسائل الإعلام، ينشطها مختصون وخبراء في التربية.

إن نجاح خطة داخل البيت لترشيد استفادة الأطفال من الثقافة الإلكترونية، دون حدوث رد الفعل السلبي، يعود إلى مقدار وعي الأبوين بأدوارهما التربوية، ومعرفتهما المسبقة بمكونات هذه الثقافة ووسائلها، الصالح فيها والطالح؛ ومعرفة بالبيداغوجيا الملائمة لتقديم «التعلية الأبوية»، التي لا ينبغي أن تحمل طابع المنع أو الزجر أو التهديد بالعقاب. ونشير هنا إلى أن مشاركة الآباء لأطفالهم عند مشاهدة أو استعمال الوسائط الإلكترونية، قد يكون أفضل من المراقبة (المشاركة بدل المراقبة وتبويب البدائل)... إن التحديات والإكراهات كثيرة في عصر غزو الثقافة الإلكترونية المعولمة للبيوت، ولكن مع ذلك يبقى وعي الأبوين، وحسن تصرفهما أهم وسائل مقاومة هذا الزحف الجارف.

وعلى عكس ما قد يعتقد البعض، فإن الأسرة مدعوة في عصر العولمة إلى استرجاع مكانتها وأدوارها وتجديدها. إن مكانة الأسرة ينبغي أن تبقى راسخة، أما ما يتغير تبعا للتحويلات الخارجية، فهو أدوارها ووظائفها، وذلك حرصا على التكيف مع الواقع الجديد.

إننا لا ندعو إلى حظر التسلية والترويج والمتعة وبهجة الحياة، فذلك يحمل في طياته أخطارا فعلية أخرى. كما أننا لسنا من دعاة منع ألعاب الفيديو، لكننا ندعو الآباء إلى ترشيد استعمال هذه الألعاب وتشجيع أبنائهم على الإقبال على الألعاب الذهنية التي تقتضي إعمال العقل، بدل إعمال القوة من أجل تحقيق الهدف المنشود في اللعبة؛ والى الإقبال كذلك على الأفلام التاريخية وعلى أفلام الطبيعة الحية والفيزيائية؛ وإرفاق كل ذلك بمزاولة الألعاب التي تقتضي الحركة الرياضية.

لابد، إذن، من توفير إستراتيجية عربية في مجال ثقافة الطفل تعمل على توضيح الرؤية وترسم آليات تنفيذها؛ مع الحرص على توعية الآباء والفاعلين التربويين بدقة المهام المطروحة عليهم، في إطار ترشيد التعامل مع الثقافة الإلكترونية. وعلينا أن نخترط في صناعة إعلامية تربوية ومبدعة، تلبى شغف الطفل بالتسلية والمتعة، في تناغم تام مع احترام الضوابط القيمية والتاريخية والحفاظ على هويته واستقراره النفسي، وتوازنه واطمئنانه، والترقي بتربيته وتعليمه.

2 - دور المتخصصين ومنتجي ثقافة الطفل الوطنية

يبقى إنتاج البرامج الوطنية إحدى الرهانات الأساسية في مجال خلق بدائل لتحصين أطفالنا من التأثير السلبي بالثقافة الإلكترونية المعولمة. ولا يمكن تفعيل هذا الورش، على ضخامته، إلا بوضع سياسات وطنية محددة، وتخطيط استراتيجي واضح الرؤية والرسالة، يعمل على تضافر

وتناغم جهود كل الفاعلين من مربين و مؤلفين ومنتجين ومختصين في إعداد المواد الإعلامية، وغيرهم من الجهات الداعمة لإنتاج ثقافة وطنية تستجيب لحاجات أطفالنا الأساسية، وتحصنهم ضد التيارات الجارفة المسيئة للعقيدة والقيم والأخلاق. إن إدمان بعض الأطفال على مشاهدة البرامج الأجنبية والتفاعل معها، هو تعبير عن حاجات داخلية لم يتم إشباعها، وهذا تقصير يقع على العديد من المؤسسات التي تساهم في صياغة وتشكيل فكر الأطفال واليافعين، من آباء و مربين و مؤسسات المجتمع المدني و المجتمع العام.

إن إيجاد البديل الإعلامي والثقافي الموجه للطفل العربي لا يمكن أن يكون إقصاء تاما للمنتوج الأجنبي، لأن هذا غير ممكن. لكن الهدف الأساسي سيظل هو إنتاج ثقافة للتربية والتسلية وللفرجة والمرح، وفق معايير العقيدة والقيم والأخلاق، التي من شأنها أن تعمل على تمنيع الطفل حاضرا ومستقبلا من الانسياق وراء مخاطر تفكيك و سلب الهوية المبطنة في الثقافة الإلكترونية المعولة للأطفال. وكلما توفر هدف التمنيع كلما كانت الرقابة ذاتية لدى الطفل المسلم، وهي أجدى وأنفع من حيث أنها تترك للطفل حرية الاختيار وإمكانية التقويم.

لقد أصبح من الواضح الآن أن انفتاح الطفل وتوازن نموه، لا يمكنه أن يتم ويغتنى، دون توفر جرة مناسبة من المناعة الداخلية. لذلك فإن تمنيع الهوية هو مدخل لديمومة النمو المتوازن. وفيما يلي بعض التوصيات التي تخدم تحقيق هذا الهدف:

- ينبغي للحفاظ على النمو المتوازن للطفل وتمنيعه ضد كل أشكال الاستلاب العمل على تفعيل آليات للمراقبة المستنيرة لما يستهلكه أطفالنا في مجال المادة الإعلامية والثقافة الإلكترونية، وذلك بالتمييز بين ما يلائم سنا معينة أو مرحلة محددة من مراحل نمو الطفل دون أخرى؛ وما ينبغي مشاهدته بمشاركة الأبوين؛ وما يمكن مشاهدته في جماعة الرفاق.
- العمل على تشكيل وجدان الطفل، من خلال القصص المؤثرة التي تعرض للبطولات والنماذج الفريدة في تاريخنا، مع تفادي أساليب الوعظ والفرص والتحرير.
- تحديد مفهوم وطني للسعادة، يكون بديلا للمفهوم الغربي للسعادة، التي تم اختزلها في المتعة والأنانية والقوة والسيطرة والثراء المادي والاستهلاك.
- تنمية ملكة الخيال عند الطفل، بشكل يجعله خيالا واسعا وبناءا.
- إيجاد التوازن النفسي في شخصية الطفل، في مقابل الاضطراب والتنافر الحالي.

اعتبار مجال الثقافة الإلكترونية كمجال للبناء الاستراتيجي للمستقبل، وتطوير صناعة وطنية في مجال الإنتاج السمعي البصري الموجه للأطفال.

ثقافة الطفل وتحديات العولمة

وضع معايير وطنية وقومية وحضارية، تتأسس عليها السياسة الوطنية لإنتاج ثقافة الطفل، وكذا سياسة استيراد وانتقاء البرامج الأجنبية.

تثمين القراءة في وسط الأطفال واليا فعين، باعتبارها أحد أهم وسائل التنقيف الذاتي، مع ترشيد الاستفادة من باقي الوسائط التكنولوجية السمعية البصرية.

صناعة قدوات لأطفالنا تحترم معايير وقيم وخصوصيات المجتمعات العربية.

العمل على إدماج برامج للتربية الوالدية في التعليم النظامي، تؤهل المتخرج، بعد نهاية السلك التعليمي، لتأسيس أسرة ورعاية وتربية الأبناء في أفضل الظروف، ووفق حاجيات الأطفال ومتطلبات المجتمع.

المراجع:

- أحمد حسن الخميسي، «ثقافة الأطفال الإسلامية»، دار الحافظ للكتاب، حلب، سورية.
- أمين، جلال (1998): العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي: أبحاث مؤتمر العولمة الثقافية، أبريل، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
- الأتاسي هالة (2002): برامج الأطفال في الإذاعة والتلفزيون في العالم العربي، ورشة عمل بعنوان «ثقافة الطفل العربي والألفية الثالثة»، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.
- الدجاني، أحمد صدقي (2002): تأملات في الأسرة والطفل في عصر العولمة، ورشة عمل بعنوان «ثقافة الطفل العربي والألفية الثالثة»، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.
- توفير، أنفن (1991): تحول السلطة، الجزء الثاني (ترجمة حافظ الجمالي وأسعد صقر). دمشق، اتحاد الكتاب العرب.
- جعفر، عبد الرزاق (1995): حدود أدب الطفل، في: ثقافة الطفل العربي واقع وآفاق، دمشق وبيروت، دار الفكر.
- حنفي قدرى (2002): «مضمون ثقافة الطفل العربي في عالم متغير»، ورشة عمل بعنوان «ثقافة الطفل العربي في الألفية الثالثة»، القاهرة، المجلس العربي للطفولة والتنمية.
- خليفة، هند (2004): العوامل المؤثرة على الأعمال الإبداعية المقدمة للطفل في المجتمع العربي: دراسة استطلاعية تطبيقية على الشخصية الكرتونية المقترحة للطفل العربي، مجلة الطفولة العربية، المجلد الخامس - العدد الثامن عشر، الكويت.
- عاطف عدلي العبد (1995): الإعلام وثقافة الطفل العربي، دار المعارف، سلسلة اقرأ الشهرية، عدد 603
- ماري وين، الأطفال والإدمان التلفزيوني، ترجمة عبد الفتاح الصبحي، عالم المعرفة الكويتية، عدد 247

- المجلس العربي للطفولة والتنمية، بالشراكة مع جامعة الدول العربية وبرنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية «أجفند»، (2009) : «إستراتيجية تنمية لغة الطفل العربي، أبحاث ودراسات».
- المشيقح، محمد (1997): دور البرمجيات في تنمية ثقافة الطفل في دول الخليج العربية، الرياض، مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- **Beaud, Michel** (2000), Le Basculement du Monde : De la Terre, Des Hommes, et du Capitalisme. Paris, La Découverte.
- **Levy, Pierre** (1994). L'Intelligence Collective :Pour une Anthropologie du Cyberspace Paris, La Découverte.
- **Salameh, Gassan** (2003). Le Siècle Américain. Paris, Le Plon.
- **Queau Philipe** (1993) Le virtuel :vertus et vertige. Paris, Champs-vallon.